التأريخ للدرس الأدبي من طه حسين إلى هانس روبيرت ياوس

كتاب المشوق نموذجا

لخضر قريش ، المدرسة العليا للأساتذة ، بوزريعة / الجزائر

❖❖❖❖❖

Résumé

La présente étude aborde les problèmes inhérents a l'approche historique de la leçon de littérature dans le manuel *El Mouchawiq* destiné aux élèves de 1er année secondaire, option lettres. La démarche est motivée, entre autre, par une question fondamentale : La conception du manuel découle –t- elle d' une approche théorique visant à élucider l'évolution du texte littéraire permettant à l'élève d'avoir une vision panoramique ? Le constat que nous avons dressé montre au contraire que l'enseignement privilégie plutôt une approche qui se réduit aux textes des grands auteurs. Pour les besoins de notre études nous nous sommes appuyés sur les hypothèses énoncées par Taha Hussein dans son célèbre ouvrage *De la littérature pré-islamique* et celles de Hans Robert Yauss dans son ouvrage *L'Esthétique de le réception* , tous deux soulevant d'importantes questions de méthode et de procédure.

ملخص :

إن التعاطي مع الدرس الأدبي ليس بالأمر الهين، فالدارس مطالب بين الحين والآخر بفحص مفرداته وتدليلاته، خاصة عندما يوجّه للغير، وبالتحديد تلاميذ المستوى الثانوي، ومن هذه الزاوية ولدت فكرة المقال، الذي يسعى إلى تحليل إشكالية : كيف يؤرخ للدرس الأدبي ؟ وهل هناك رؤية نظرية في مقاربته، وتتبع مراحل تطوره ؟ لقد قادنا هذا البحث إلى أن التأريخ للدرس الأدبي في الكتاب المدرسي، الخاص بالسنة الأولى ثانوي المشوق مازال يعتمد على التسلسل الكرونولوجي التصاعدي للأحداث، والاهتمام فقط بكبار الكتاب والشعراء، فهو ذو نزعة انتقائية اعتباطية تحكمها النظرة الاختزالية، بدل التعامل مع الظاهرة الأدبية بنوع من التحليل والفحص، في إطار إشكاليات بحثية تتتبع الأجناس الأدبية من خلال إشكالية السؤال والجواب. وبغية الوصول إلى تحليل هذه القضايا، أختارت هذه المقاربة بعض فرضيات كلّ من طه حسينوخاصة كتابه في الأدب الجاهلي، وكذلك فرضيات

خلال بحثه في جمالية التلقي وما أثاره من قضايا منهجية وإجرائية. هانس روبيرت ياوس المتعلقة بمسألة التأريخ للدرس الأدبي، وذلك من

❖❖❖❖❖

1- إشكالية الدرس الأدبي

تتوجه هذه المقاربة نحو قارئها بوصفها تحليلا لواقع الدرس الأدبي، فهي تسعى أولا إلى تحليل إشكالاته وفهم مفرداته وبنياته في جانبها النظري، أما ثانيا فتهدف إلى تطبيق ما أنجزته نظريا على واقع كتاب المشوق في الأدب والنصوص والمطالعة الموجه للسنة الأولى من التعليم الثانوي جذع مشترك آداب. والدرس الأدبي ـــ هنا ـــ يعتمد بالأساس على تجربة الناقد طه حسين خاصة في كتابه الذي أثار أسئلة ما زالت مستمرة عبر الزمن، ونقصد به "في الأدب الجاهلي" فهو قد عايش الدرس الأدبي في المؤسسة الدينية ثم المؤسسة الحكومية

الثانوية ثم الجامعة وخرج بتجربة لا يمكن تجاوزها واختزالها في هذا الميدان، ونظرا لأهميتها سيكون في الأدب الجاهلي نقطة الانطلاق وأرضية النقاش، وهكذا تصبح الإستراتيجية النظرية في هذه المقاربة أكثر تفاعلا وحوارا مع تجربة في الأدب الجاهلي، هذا أولا، أما ثانيا فإن نقطة وصولها هي مجهود الناقد الألماني هانس روبرت ساوس Hans Robert Yauss الذي قدّم هو الآخر مشروعا في كتابه L'esthétique de la réception. وبناء عليه فإن أسئلة هذه المقاربة هي:

أ- ما هو مفهوم الدرس الأدبي، وما هي أهم مراحل تطوره؟

ب- كيف يؤرخ للدرس الأدبي؟ وما هي أهم مقاييس هذا التأريخ؟

ج- كيف يمكن تحديد منهجية علمية للدرس الأدبي؟

تلك بعض الأسئلة التي تشتغل عليها هذه المقاربة، حيث لا تسعى هذه الأخيرة إلى تقديم نفسها كبديل لما هو مطروح في الدرس الأدبي، بقدر ما تريد أن تستمع وتنصت أولا لهذا المسمى بالدرس الأدبي، فهو يتطلب منهجيات وإجراءات ونظريات تحليلية متنوعة قصد فهمه، وفحصه.

2- مفهوم الدرس الأدبي عند طه حسين

عندما يتحول فضاء ما إلى فضاء تعليمي، فإنه يفترض وجود باعث أو مرسل ومستقبل أو متلقي، بينهما وسائط تعليمية أساسها الكتاب كنموذج، فهو الأداة التعليمية والبيداغوجية، ومن هذه الزاوية فإن الاهتمام بالنقاش البيداغوجي و"النقاش المنهجي لا يرجع إلى مجرد فضول فكري أو نشوة ذهنية، فهو من كنه ما لنا من قدرة على الإبداع والتجديد والتوضيح، وإن ما هو

جوهري في عالم الفكر هو أن نفهم أولا، وأن نعير لكل طريقة ما يجب لها من عناية، ثم ننظر إليها بروح نقدية وتنيرنا، ولا نسعى إلى الدحض فيحجب أنظارنا عما يمكن أن يغيننا به الآخرون"، [1] حيث يقودنا هذا إلى التساؤل التالي: كيف يمكن لنا أن نتتبع مراحل تطور الدرس الأدبي؟

إن الدرس الأدبي مرّ بمراحل، فمن الشيخ الأزهري الأستاذ سيد المرصفي الذي "كان يفسر لتلاميذه في الأزهر ديوان الحماسة لأبي تمام أو كتاب الكامل للمبرد أو كتاب الامالي لأبي علي المقالي، ينحو في هذا التفسير مذهب اللغويين والنقاد من قدماء المسلمين في البصرة والكوفة وبغداد، مع ميل شديد إلى النقد والغريب، وانصراف شديد عن النحو والصرف وما ألف الأزهريون من علوم البلاغة"[2]إلى الأستاذ الأوروبي نيلينو، "الذي كان ينحو في درس الآداب العربية نحو النقاد ومؤرخي الآداب، حين يعرضون لدرس الآداب الأوربية الحية أو الآداب الأوربية القديمة"، [3] ورغم الاختلاف الظاهر بين آليات الدرس الأدبي عند كل فريق إلا أن النظرة التوفيقية بينهما كانت حاضرة في النزعة النقدية عند طه حسين الذي يقول "وكنت ألاحظ ان الفرق بين المذهبين عظيم، وكنت ألاحظ أن كلا المذهبين لابدّ منه إذا أردنا أن نتقن الآداب العربية إتقانا صحيحا ونفقه تاريخها فقها مقاربا وننشئ في نفوس الطلاب ملكة النقد والكتابة ونأخذهم بمناهج البحث المنتج". [4]

لكن هل يوجد مذهب آخر في الدرس الأدبي النقدي، أم أن الأمر مقصور على ما سبق فقط؟ لاحظ طه حسين إن بين المدرستين السابقتين يوجد "مذهب ثالث مشوه رديء كله شر، والخير كل

الخير في أن يصرف عنه الأساتذة والطلاب صرفا، وهو هذا المذهب الذي كان قائما في مدرسة القضاء ودار العلوم وفي المدارس الثانوية المصرية كلها"[5] لكن ماهي الأسباب المقنعة التي تجعل الأستاذ الدكتور طه حسين يعتبره مشوها وينصح بالابتعاد عنه، وقبل ذلك كيف يتعاطى هذا المذهب مع الدرس الأدبي؟

يحدد الدكتور طه حسين آليات عمل هذا التوجه بقوله: "لا يأخذ بحظ من أسلوب القدماء في النقد ولا من أسلوب المحدثين في البحث، وإنما يحاول أن يقلد الأوربيين فيما يسمونه تاريخ الآداب، فيعمد إلى الكتاب والشعراء والخطباء والفلاسفة فيترجم لهم أو يختلس لهم ترجمة من كتب الطبقات على اختلافها، ثم يتبع كل ترجمة بشيء من شعر الشاعر أو نثر الكاتب أو بيان الخطيب، ثم يلمّ في كل عصر بطائفة من المعاني يلفق بعضها إلى بعض في غير فقه ولا فهم ولا احتياط ولا دقة، ويسمى هذا الخليط كله أدب اللغة العربية. حينا وتاريخ أدب اللغة العربيةحينا آخر، وكانت العادة قد جرت بأن يكتب أساتذة الآداب هذا الكلام للطلاب ويذيعوه فيهم، حتى إذا فرغوا من هذا الامتحان انصرفوا عما حفظوا أو انصرف عنهم ما حفظوا، لم ينتفعوا منه بقليل ولا كثير، ولم يتعلموا منه نقدا ولا بحثا، ولم يفيدوا منه ذوقا ولا شيئا يشبه الذوق". [6]

إن مكمن الاختلاف هو أولا في تحديد الفروق بين الأدب والدرس الأدبي، ثم ثانيا في أن مبعث الرفض متوجه بالأساس إلى طريقة وآليات التدريس والتعليم في الدرس الأدبي فطه حسين لا يرفض الدرس الأدبي لذاته، بل يرفض طريقة وآلية تعليمه، وهنا نفتح سؤالا محوريا في هذه

المقاربة: كيف نموقع كتاب "المشوق" بين المدارس السابقة، وهل ينتمي إلى مدرسة الشيخ سيد المرصفي أم إلى مدرسة الأستاذ نلينو أم إلى مدرسة القضاء ودار العلوم أم هو يشكل مدرسة لوحده؟ هذا ما سنكشف عنه في الجزء الثاني من هذه المقاربة ولكن قبل ذلك كيف تفاعل طه حسين مع التجارب السابقة؟

إن الناقد وصل إلى قناعة شبه أكيدة، تتمثل في قوله: "لم يكن ينتظر ولا يرجى أن يتغير منهج الدرس الأدبي في مدارس الحكومة"[7] إنها قناعة خطيرة يقدمها الناقد! بل يكاد يصل به الأمر إلى حد التهديد بفصله من البعثة العلمية الخاصة بالجامعة، وهذا لمّا عبّر عن آرائه النقدية الإصلاحية، وتعاطي مع الموضوع بشكل علني عبر قنوات الصحافة المكتوبة آنذاك؟

3- مقاييس التأريخ للدرس الأدبي:

حدد طه حسين في كتابه "في الأدب الجاهلي" جملة مقاييس وإجراءات في دراسة التأريخ للدرس الأدبي، ونظر لأهميتها يمكن أن نقدمها على النحو الآتيز

3-1- المقياس السياسي*

يعتبر المقياس السياسي أول المقاييس المعتمدة في التأريخ للدرس الأدبي، وهو ينظر "إلى الآداب من حيث العصور التي ظهرت فيها، وتقسيمها من هذه الناحية إلى آداب جاهلية، وآداب إسلامية، وآداب عباسية، وآداب نشأت في عصر الانحطاط، ثم آداب نشأت في هذا العصر الحديث"،[8] هذا عن المرحلة الأولى من المقياس السياسي، أما عن مرحلته الثانية ففيها يحاول أن يركز على "ما

ظهر في هذا العصر من أنواع الأدب وفنونه، فكلمة عن الشعر، وأخرى عن النثر، وثالثة عن الأمثال، ورابعة عن الخطابة، وخامسة عن العلم وهلم جرا"[9] والمرحلة الثالثة، فهي مرحلة الترجمة للشعراء والخطباء والكتاب والعلماء، وبناء على[10] هذه المتتاليات والتراتبيات يتم إنجاز الدرس الأدبي، والتأريخ له، في الثانوية الرسمية الحكومة، وفي المدارس العليا.

يرفض طه حسين هذه النمطية في تدريس وتعليم الدرس الأدبي، بل يمقتها أشد المقت، فهي تنفر الطلبة من الإقبال على الأدب العربي انطلاقا من عدة اعتبارات، من بينها "أنّها تتخذ الحياة السياسية وحدها مقياسا للحياة الأدبية، فالأدب راق خصب إذا ارتقت الحياة السياسية وازدهرت، وهو منحط جدب إذا انحطت الحياة السياسية وعقمت"[11] وهنا مكمن المفارقة بين التابع والمتبوع، فالأدب هو المرآة العاكسة للسياسي، فكم من أدب ضاع وأهمل بسبب أن الحياة السياسية منحطة، وكم من حياة سياسية قوية وأدب فترتها ضعيف مريض، لكن أليس معنى هذا غياب الصلة بين الأدب والسياسية؟

إن مسألة ارجاع تفسير الظاهرة الأدبية إلى السياسة هو الذي لا مبرر له، "إنما نريد ألا نسرف في أمر هذه الصلة حتى تصبح السياسة مقياسا للأدب"، [12] بل لابد من وضع المقياس السياسي في حجمه الطبيعي، فهو جزء من الأجزاء المساعدة في تفسير الأدب، كما أنّه ليس إلا مؤثرا خارجيا، "فأنت ترى أن الحياة السياسية، لا تصلح مطلقا لأن تكون مقياسا للحياة الأدبية، وإنما السياسة كغيرها من المؤثرات، كالحياة الاجتماعية، كالعلم، كالفلسفة".[13]

أما الاعتبار الآخر، فيتمثل في الاختزالية، وعدم الإحاطة بالأدب والأدباء، حيث "لم يأخذ من الشخصيات إلا شيئا قليلا اقتطفه من الكتب اقتطافا واكتفى به"،[14] هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فهناك ملاحظة منهجية في غاية الخطورة، إذ أن المقياس السياسي "يأخذ الأدب العربي على أنه وحدة مستقلة لا تنقسم إلا بانقسام العصور"[15] وهنا مكمن المفارقة والخطورة مرة ثانية. هذا عن المقياس السياسي فماذا عن المقياس الآخر.

3-2- المقياس العلمي

إن الأصول المعرفية للمقياس العلمي تنطلق من أعمال كل من سانت بيف Saint Beuve وهبوليت تين H. Taine والتي تؤكد على أن "تاريخ الأدب علم كغيره من العلوم الطبيعية"[16] والناقد الثالث الذي يدعم هذه النظرة هو برونتيير Brunetière حيث حاول هو الآخر أن يخضع الأدب "لنظريات النشوء والارتقاء على مذهب أصحاب التطور من أنصار داروين".[17]

إن الناقد طه حسين يتخوف من النزعة العلمية التي تهدف إلى علمنة الأدب، فهذا التوجه يراه عقبة في جعل الأدب نوعا من الكيمياء والطبيعة والجيولوجيا، وبالتالي تكاد تقضي هذه النزعة على الروح الفنية في الأدب، وبناء على هذا المعطى ، فالمقياس العلمي هو الآخر مرفوض، كما رفض المقياس السياسي من قبل، لكن ما دام طه حسين يرفض المقياسين معا، فهل يقدم بديلا؟

3-3- المقياس الأدبي

يقوم المقياس الأدبي على النزعة التوفيقية بين العلم من جهة، والفن من جهة ثانية، "فتاريخ الآداب إذا يجب أن يجتنب الإغراق في العلم، كما يجب أن يجتنب الإغراق في الفن، وأن يتخذ لنفسه

بين الأمرين سبيلا وسطا"[18] أما العلوم التي يجب أن يعتمد عليها فهي العلوم الصرفة التي لا أثر فيها للفن، كفقه اللغة وعلوم النحو والصرف والبيان والتاريخ ومناهج البحث الأدبي، وليست العلوم التجريبية، كما يقول طه حسينوهذا الجانب هو العلمي في العملية، أما الجانب الفني فإنه يعتمد على تأثير شخصية الباحث وذوقه.[19]

4- منهجية الدرس الأدبي عند هانس روبرت ياوس

إن المنهجية هي أولا علم قائم بذاته، يعتمد على الطرائق المتبعة في دراسات الآداب، حيث ينظر في قواعدها وأسسها المنهجية، [20] وهذا من أجل فهم عميق للآليات التي تحكمها، بينما "الإبيستيمولوجيا أو النظرية المعرفية ...فهي تحاول الفصل في مسألة قيمة المناهج بالنظر إلى هدفها العام، أي تحاول أن تكشف عن الواقع الذي نصل إليه بواسطة كل منهج". [21] نقول هذا لأن المنهجية "تبيّن لنا خصوصية كل منهج حتى عندما يستعين بمناهج تخصصات أخرى"،[22] هذا من جهة، ومن جهة ثانية فإننا سنقدم تجربة أخرى أثرت الساحة النقدية بإسهاماتها، إنها تجربة هانس ربيرت ياوس.

يؤكد هانس روبرت ياوس على "أن تاريخ الأدب التقليدي عندما يصف الأدب محترما سلما قيميا شائعا كرسته تقويمات سابقة فيعرض الأدباء واحدا بعد الآخر، حسب التتابع الزمني، يعرض حيواتهم وأعمالهم، وهكذا نحصل على الصيغة التالية الأديب، حياته وأعماله...إن هذا النوع من الدراسات ليس تاريخا، إنه بالكاد هيكل عظمي"،[23] لكن لماذا هو هيكل عظمي؟ إنه كذلك نظرا لأن "كبار الكتاب وحدهم هم الذين يعرض لهم هذا التاريخ، أما من هم في أدنى درجات

السلم القيمي المكرس فقلّما يشار إليهم، هذا التاريخ هو إذن تاريخ انتقائي، ويحدد المبدأ الذي يتم على أساسه هذا الانتقاء بصورة اعتباطية، ومن ناحية أخرى، فإن تطور الأجناس والأساليب الأدبية سيقدّم لا محالة بطريقة مجزأة في هذا النوع من الدراسات".[24] وعلى أنقاض هذه النزعة في التأريخ للدرس الأدبي ظهر توجه آخر يتمحور حول:

4-/1- النموذج الغائي ** Téléologique

يتأسس هذا التوجه أو النموذج في تعامله مع التأريخ للدرس الأدبي "من المبدأ الفلسفي الذي يؤمن بأن أشياء العالم وحركته تخضع لغاية، ويؤوّل سيرورة الأحداث عبر التاريخ على ضوء غرض أو مثل أعلى مركب في طبيعة الأشياء".[25] وعلى المبدأ السابق يتم عمل مؤرخ الأدب، حيث لا يكون "جديرا بهذه التسمية إلا إذا تمكن من اكتشاف الفكرة الأساسية الوحيدة التي تطبع بطابعها مجمل الظواهر التي اتخذها موضوعا لبحثه، وتتجلى من خلالها وتربطها بأحداث التاريخ الكلي، ويتم انتقاء الوقائع الأدبية الدالة الجديرة بالتأريخ لها في ضوء قربها أو بعدها عن ذلك الجوهر أو المبدأ أو الفكرة الأساسية الوحيدة".[26]

4-/2- الاتجاه التاريخاني L'Historisme

انتقد الاتجاه التاريخي النموذج الغائي "وقد طرح السؤال التالي على الاتجاه التاريخاني: كيف يمكن أن نقدم كـ "كل" متماسك ما لا يتبدى إلا في صورة جزئية، مالا يظهر أبدا ككل؟ إن المؤرخ الذي لا يستطيع أن يصدر حكما إلا إذا كانت النهاية ماثلة أمامه، لا يستطيع أن يقدّم إلا سلاسل أحداث مكتملة، ومن هنا تطرح مشكلة

التوفيق بين اكتمال الأحداث من ناحية، واستمرار التاريخ من ناحية أخرى". [27]ومن أجل حل هذه الإشكالية سعى الاتجاه التاريخاني إلى دراسة "العصور باعتبارها كيانات مكتملة مكتفية بذاتها لها معنى خاص مستقل عن العصور الأخرى، لكن هذا الحل للتناقض بين الطابع المحدود للأحداث المعروضة من ناحية والفكرة من ناحية أخرى كان ثمنه التضحية بالاستمرارية بين الماضي والحاضر". [28]

إن إشكالية التأريخ للدرس الأدبي مسألة في غاية التعقيد والتركيب؛ وأن سؤالها المحوري كان : كيف يؤرخ للأدب؟ حيث رفض الناقد طه حسين التعاطي مع الدرس الأدبي وفق المتواليات السياسية لأنها تهدف بالأساس إلى التبسيط والاختزال في التعامل مع الظاهرة الأدبية، وأن التقسيم الأدبي إلى عصور هو نوع من الجسد الميت، كونه يعطي أولوية للسياسي على حساب الأدبي والفني، فالتأريخ للدرس الأدبي لا بد أن تتضافر فيه "المقاربة التاريخية والمقاربة الجمالية"[29] وبناء على هذا المعطى التاريخي ـ الجمالي، فإن جمالية التلقي لا تسمح فقط بإدراك معنى العمل الأدبي وشكله بالكيفية التي تم فهمها على نحو تطوري عبر التاريخ، بل تقتضي أيضا، أن يصنف كل عمل ضمن السلسلة الأدبية التي ينتمي إليها، حتى يتمكن من تحديد وضعه التاريخي ودوره وأهميته في السياق العام للتجربة الأدبية، فبالانتقال من تاريخ تلقي الأعمال الأدبية إلى التاريخ الحداثي للأدب، يتضح أن هذا الأخير سيرورة يؤدي فيها التلقي السلبي للقارئ والناقد إلى التلقي الإيجابي للمؤلف وإلى إنتاج جديد، وبتعبير آخر، سيرورة يمكن فيها للعمل اللاحق أن يحل المعضلات، الأدبية والشكلية التي تركها العمل السابق،

وأن يطرح بدوره معضلات أخرى[30] فالعلاقة التي يفتحها العمل اللاحق مع العمل السابق هي من صميم المقاربة التاريخية - الجمالية. لذا نطرح السؤال التالي: كيف يتم التأريخ للدرس الأدبي في كتاب المشوق؟ تلكم هي إشكالية هذه المقاربة.

5- حين يتحدّى تاريخ الأدب النظرية الأدبية ***

يطرح ياوس في بداية مقاله إشكالية وجود أزمة في تأريخ الأدب، حيث تتمثل هذه الأخيرة في منهجية وإجراءات التعامل معه، وكيف يكتب المؤرخ الأدبي تاريخ أمة ما؟ وذلك من خلال التركيز على:

1- منتجات أدبهم، أي أدب تلك الأمة أو الأمم

2- البحث عن جوهر الهوية القومية[31]

بيد أن المنهجية أضحت في نظر ياوس غير مجدية إذ يقول : غير أن هذا المنهج المجيد أضحى اليوم ذكرى بعيدة، بحيث أصبح تاريخ الأدب في شكله الموروث عن التقليد، يعيش بصعوبة على هامش النشاط الفكري الراهن، إنه مادة إجبارية في برامج الامتحانات آن أوان إصلاحها، وفي ألمانيا تم العدول ـــ بشكل شبه تام ـــ عن فرضه على التلاميذ في التعليم الثانوي، أما خارج التعليم فربما لم يعد لمصنفات تاريخ الأدب أي وجود إلا في رفوف مكتبات البورجوازيين المتعلمين، الذين يرجعون إليها خاصة للبحث عن أجوبة على أسئلة الثقافة الأدبية العامة التي تطرح في المسابقات التلفزيونية، وذلك لعدم توفرهم على قاموس تقني أكثر ملائمة[32] ومن هذا المعطى ينطلق ياوس في تشريحه لظاهرة تاريخ الأدب، وتحديد أهم المزالق التي تترصده، ومن جملة الانتقادات الموجهة للتأريخ الأدبي، ما

وجهه نقاد النظرية الأدبية، فهم يعيّبون التأريخ الأدبي التقليدي بسبب ادعاء كونه **فرعا** من فروع علم التاريخ، بينما هو في حقيقة الأمر قاصر عن إدراك البعد التاريخي للأشياء **وعاجز** عن التقويم الجمالي لموضوعه، أي الأدب من حيث هو شكل فني. [33]

إن إشكالية الهوية **والمحددات** الابستمولوجية لما يعرف بالتأريخ الأدبي **وتموقعه** بالنسبة لعلم التاريخ، هي **من المحاور** الأساسية التي تستدعي الدراسة **والتحليل، فإلى** أيّ حدّ يمكن فهم العلاقة بين علم التاريخ **والتأريخ** الأدبي؟ **وأيّهما** يحتوي الآخر؟ **وهل** يشكلان تضادا أم تناغما؟ إن النظرية الأدبية اعتبرت التأريخ الأدبي فرعا من فروع علم التاريخ، لكن ياوس يرى غير ذلك ؟ **أولا،** التأريخ الأدبي قاصر عن إدراك البعد التاريخي للأشياء. ثانيا، التأريخ الأدبي عاجز عن التقويم الجمالي لموضوعه، أي من الناحية الشكلية الفنية.

لقد حدد ياوس حاضر التأريخ الأدبي في كونه **قاصرا وعاجزا** عن إدراك البعد التاريخي للأشياء، لكن ماذا يقصد بالبعد التاريخي للأشياء ؟ **وماذا** يقصد كذلك بالتقويم الجمالي لموضوعه ؟ لدينا التأريخ الأدبي **وموضوع** التأريخ الأدبي، فإذا كان الأول هو منهجية العمل فإن الثاني هو مادة العمل وفق المنهجية **المحددة سلفا**، لكن ما هو واقع التأريخ الأدبي حسب ياوس؟

يرى ياوس أن العملية تتم وفق ترتيب المواضيع على نحو متسلسل بحسب التدرج الزمني لبعض مشاهير المؤلفين، تبعا للتقسيم الثلاثي **المعروف: اسم المؤلف، حياته، آثاره، ونتيجة**

لهذا الإجراء الأخير، تكون حصة بعض المؤلفين الصغار من الاهتمام زهيدة، ويتم تقديم تطور **الأجناس بالتجزيء حتما، أما الإجراء الثاني** فيتم بموجبه التقديم التراتبي التقليدي لمؤلفي العصور القديمة، في حين يختص الإجراء الأول بالتأريخ للأدب الحديث على نحو تنحل معه معضلة الاختيار بين مؤلفين **وأعمال تتعذر** تقريبا الإحاطة بتنوعها، هذا الاختيار الذي يزداد صعوبة كلما **اقترب المؤرخ من الحاضر.** [34]

إن الآليات السائدة في التأريخ الأدبي هي الاهتمام بـــ : 1- **اسم المؤلف** 2- حياته 3- **آثاره**

لكن ماذا يترتب عن هذه الإجراءات ؟ إن المزالق التي تترتب عمّا سبق هي مزالق اختزالية تسير في اتجاهين : **أولا، الاتجاه** الاختزالي يمس فئة المؤلفين الصغار حيث تكون نسبة الاهتمام بهم زهيدة **و**ناقصة مقارنة بالمؤلفين المشاهير. وثانيا، الاتجاه الاختزالي الثاني يتعلق بتطور الأجناس الأدبية، حيث أن الإجراءات السابقة، **أي اسم المؤلف**، حياته، **آثاره** تجزئ فهم التطور الحاصل في التأريخ الأدبي، الذي يتم تقديمه مجزئا حتما بناء على الآليات **والإجراءات السابقة، أما الإجراءات الأخرى فتتمثل في** التقديم التراتبي التقليدي لمؤلفي العصور القديمة...**و**على هذا النحو لا يحقق التأريخ الأدبي نتائج مريحة في فهم الظاهرة الأدبية، **لأن** التأريخ للأدب بهذه الكيفية **التي تراعى** تراتبية مكرسة، **و**تقدم المؤلفين **و**سيرهم **و**آثارهم حسب التتابع الزمني ليس تاريخا حقا بقدر ما هو بالكاد طيف تاريخ، حسب تعبير جورج جتفريدجيرقنس gearg gottfried gervinus [35] لكن ما هي الفجوات التي تعتري هذه الدراسات؟

إن من بين الفجوات التي تجعل من التأريخ الأدبي غير مجد بناء على الآليات السابقة مايلي:

1- أنه يهمل فهم الاختلافات بين الأعمال الأدبية .

2- إن الآليات السابقة لا تتتبع التطورات الخاصة بالأجناس الأدبية كالشعر أو المسرح أو الرواية أو ...إلخ . [36]

3- تعجز الآليات السابقة عن فهم وتفسير الأجناس الأدبية في المحور التزامني ، حيث تكتفي بإحاطة هذه الأجناس والأعمال بتأملات تاريخية حول روح العصر والاتجاهات السياسية السائدة، وذلك بسبب عجزه عن تفسيرها في تزامنيتها[37]

4- التأريخ الأدبي لا يحدد بدقة كبيرة قيمة عمل أدبي ما، كما أن قيمة عمل أدبي ومرتبته لا تستنبطان من الظروف البيوجرافية أو التاريخية لنشأته، ولا من موقعه فحسب ضمن تطور الجنس الذي ينتمي إليه، بل من معايير أدق من ذلك هي وقع هذا العمل وتلقيه وتأثيره وقيمته التي تعترف له بها الأجيال القادمة. [38] بمعنى آخر ماذا بقي من ذلك العمل الذي ولد ونشأ في الماضي، هذا أولا، ثم كيف تلقاه الجيل القادم الذي جاء فيما بعد العمل ؟ وما السّر في استمراره عبر الزمن ثانيا ؟

5- الاختلاف بين المؤرخ والناقد : ما هو عمل المؤرخ، وما هو عمل الناقد بالنسبة للتأريخ الأدبي ؟

يقول ياوس في هذا المسار ما يلي: "إذا حدث للمؤرخ أن اقتصر، بدعوى الموضوعية، على وصف ماض غابر وتقيد بالتراتبية المكرسة لروائع الأدب، تاركا للناقد مهمة الحكم على أدب حقبته الحاضرة، فإن مسافته التاريخية تقضي عليه بأن يظل دائما تقريبا متخلفا بجيل أو جيلين عن التطور الراهن لفنّ الأدب، وفي

أحسن الأحوال، يكون مساهما باعتباره قارئا سلبيا، في الحياة الأدبية المعاصر لها وفي مناقشاتها ومنازعاتها، ويصبح في أحكامه عالة على نقد يحتقره سرا بسبب عدم علميته فماذا إذن يمكن استفادته اليوم من دراسة تاريخية للأدب لا يسعها إلاّ أن تقدم للإنسان المتأمل معلومات قليلة، وأن تسعف الإنسان النشيط بنموذج باهت يقتدى به، وأن تقدم للإنسان المتفلسف عبرا تافهة، وأن تتيح للقارئ مجرد إمكانية متعة جدّ نبيلة" [39]

ما هي التساؤلات والاختلافات بين المؤرخ والناقد التي يطرحها ويناقشها القول السابق؟ يدعو ياوس المؤرخ إلى عدم اقتصار عمله على وصف ماض غابر وعدم التقيد بالتراتبية في فهم الروائع الأدبية، وإلاّ عدّ قارئا سلبيا، لكن ماذا يمكن أن نستنتج ممّا سبق ؟

1- هناك إشكالية كبرى في فهم مسألة التأريخ الأدبي .
2- هل التأريخ الأدبي فرع قائم بنفسه أم فرع من فروع علم التأريخ ؟
3- التأريخ الأدبي ما زال يراوح الدراسات المدرسية .
4- الآليات التي يعمل بها صاحب التأريخ الأدبي هي : اسم المؤلف، حياته، آثاره .
5- هذه الآليات إذا بقيت مستمرة تهدد قيام علم التأريخ الأدبي .
6- ينجر عن هذه الآليات النزعة الاختزالية .
7- اختزال فئة المؤلفين الصغار غير المعروفين .
8- اختزال فهم مسألة تطور الأجناس الأدبية.
9- عدم الإحاطة بالتنوع في الأجناس الأدبية .
10- التقيد التراتبي يقلل من فهم عمق التطور الأدبي .

11- الآليات السابقة لا تقدم تفسيرا شاملا وعميقا للأجناس الأدبية، حيث ترجع التطور إلى عوامل سياسية سائدة .
12- كيف يقع تلقي الأعمال الأدبية عبر العصور المختلفة، فهناك نص وتلقيات، وهذا الذي يهم النظرية الياوسية ياوس فكيف تلقى كل جيل الروائع والأجناس الأدبية ؟ وما هي الأسباب التطورية في ذلك ؟

6- التأريخ للدرس الأدبي في كتاب المشوق

سنختار فئة الشعر والشعراء فقط، وهذا نظرا لأن تحليل الكتاب المدرسي ليس بالعملية السهلة والبسيطة. هناك منهجية مدرسية محددة في كيفية التعامل مع النص الأدبي وهذا من خلال الأنساق أو الخطوات التالية :

1- أتعرف على صاحب النص 2- تقديم موضوع النص
3- أثري رصيدي اللغوي 4- أكتشف معطيات النص
5- أناقش معطيات النص 6- أحدد بناء النص
7- أتفحص الاتساق والانسجام في تركيب فقرات النص
8- أجمل القول في تقدير النص.

كل النصوص تسير وفق المعطيات السابقة، وبالتالي فالتلميذ يتعلم القوالب والمعيارية الجاهزة في التعاطي النقدي مع النصوص، وهي منهجية لم تبتعد كثيرا عن منهجية الكتاب القديم " المختار في النصوص" هذا أولا، أما ثانيا فإن النصوص لا تطرح من خلال إشكاليات محورية ثمّ تتوزع عبر فترات تاريخية متباعدة أو متقاربة، بقدر ما تطرح النصوص بشكل معزول ومفصول عن بعضها بعض، فالتجزئة هي التي تحكم النصوص الشعرية فيما بينها، فمثلا عندما يطرح ملف "السّلم والصّلح" لماذا يختزل في العصر الجاهلي فقط ؟ وكذلك الأمر مع ملف "الغزل"

لماذا يبدأ مع جميل بن معمر ويهمل بقية الشعراء وهكذا؟

إن النصوص الشعرية تحديدا لا تتأسس كأجناس أدبية كبرى، وتدرس من خلال تفرعاتها وتطورها وكيف حصل مسار التطور والبناء داخل كل جنس أدبي، ومن ثمّ يمكن تحليل إشكالية السؤال والجواب بالنسبة للنصوص، وكيف تمارس التأثير التحويلي مع بعضها بعض؟ فمن هذه الزاوية يعتبر الكتاب القديم "المختار في النصوص" أفضل رغم الاختزالية والسطحية التي تميزه مقارنة بكتاب "المشوق" حيث كان يعتمد على تفيئة الوحدة أو الموضوع أو الغرض، ويتطرق إلى تطور الأغراض في كل عصر أدبي، وكيف حصل التطور والبناء بالنسبة للجنس الأدبي، هذا من جهة، ومن جهة ثانية نلاحظ أن النصوص الأدبية "الشعرية" في كتاب "المشوق" تسير وفق تراتبية تصاعدية : العصر الجاهلي ثم صدر الإسلام ثم العصر الأموي. وبالتالي فالمنطق الذي يحكمها هو أولوية السياسي على الأدبي الفني الجمالي، وهذه التراتبية لا تهتم بتحليل النصوص من خلال فهم عمقها وجماليتها وكيف تطورت مقارنة ببعضها بعض، بقدر ما تركز على سمات العصر وكيف انعكس السياسي في الأدبي، وأثر فيه، وليس العكس، أي كيف أثر الأدبي الجمالي الفني في السياسي، مع أن المؤثرات لا تختزل في السياسي فقط ؟ وبالتالي يتحول النص الأدبي الفني إلى بوق في يد السياسي ويترسخ في الأذهان أن السياسة هي التي تولد الأدب؟

ينفتح كتاب "المشوق" ابتداء من الصفحة تسعة "9" تحت عنوان "العصر الجاهلي" حيث يضم في صفحاته عددا من النصوص الشعرية التي تعبر

عن طبيعة هذه الفترة والتساؤل المطروح : كيف يقدم التأريخ الأدبي في كتاب المشوق؟ ويتكئ كتاب "المشوق" في جزئه الأكبر على الجوانب التاريخية حيث يبدأ الدرس الأول بعنوان "شبه الجزيرة العربية موطن العرب ومهد الأدب العربي" وهذا من خلال إبراز مفهوم العصر الجاهلي ولماذا سمي بالجاهلي ؟ ثم بتقديم حول شبه الجزيرة العربية من الناحية الجغرافية، وأين تتموقع في الخريطة، وقبائل العرب، والنظام القبلي ... إلخ من المعطيات التي تحاول أن تضع التلميذ في السياق التاريخي للعصر الجاهلي. وأوّل درس شعري يلتقي به التلميذ هو ل زهير بن أبي سلمى بعنوان: "في الإشادة بالصلح والسلام والتحذير من ويلات الحرب" ولست أدري هل زهير هو الذي وضع العنوان، أم القائمون على الكتاب هم من وضعوا هذا العنوان الطويل والعريض؟ لكن يبدو أن الرأي الأخير هو الأقرب إلى الصحة، بيد أن وضع العنوان للنص الشعري لا بدّ أن يحقق الشعرية والجمالية الفنية، وليس اللغة الإنشائية الطويلة والعريضة؟

ومن أجل فهم استراتيجية سير الكتاب في جانبه المتعلق بالنصوص الشعرية لا بدّ من وضع خريطة طريق لذلك، وهي وفق المتواليات التالية :

1- في الإشادة بالصلح والسلام ... زهير بن أبي سلمى ص15

2- الفروسية عنترة بن شداد ص37

3- وصف البرق والمطر عبيد بن الأبرص ص59

4- تقوى الله والإحسان إلى الآخرين عبدة بن الطبيب ص90

5- من شعر النضال والصراع كعب بن مالك ص99
6- فتح مكة حسان بن ثابت ص 121
7- من تأثير الإسلام في الشعر .. النابغة الجعدي 128
8- في مدح الهاشميين الكميت بن زيد0 15
9- من الغزل العفيف جميل بن معمر ص 165
10- من مظاهر التجديد في الشعر الأموي للأخطل ص188

من أجل دراسة هذه العينة الشعرية، لا بد من التنبيه إلى النقاط التالية :
1- دراسة الانسجام والترابط فيما بين النصوص الشعرية .
2- هل النصوص الشعرية السابقة تتأسس كجنس أدبي قابل للتطور من خلال إشكالية السؤال والجواب ؟
إن مسألة النصوص من حيث الانسجام والترابط تتحرك في شكل منفصل عن بعضها بعض حتى من الناحية الأسلوبية واللغوية، حيث لا يقع التركيز والمقارنة والتطور الحاصل في بنية اللغة من عصر إلى عصر، ومن شاعر إلى شاعر، عدا المنهجية المتبعة في تحليل النصوص فهي واحدة، لكن لماذا لا تضاف خطوة أخرى في التحليل تتعلق بالمقارنة فيما بين النصوص على الأقل من حيث البناء والتركيب اللغوي – الأسلوبي، هذا أولا، أمّا ثانيا فإن النصوص الشعرية لا تتأسس كجنس أدبي يقع التركيز فيه على دراسة إشكالية التطور عبر فترات متباعدة أو متقاربة، بقدر ما تمّ اختزال كل فترة في كهفها الخاص، وعليه فلا علاقة فيما بين النصوص، من خلال إشكالية السؤال والجواب، حيث يبدو

أنها ركّبت على عجل ؟ وهنا مكمن المفارقة في كتاب المشوق وكيفية تعاطيه مع المقاربة التاريخية، والمقاربة الجمالية، حيث لم نتمكن من إدراك طبيعة العلاقات فيما بين النص اللاحق بالنسبة للنص السابق، وهل حلّ بعض المعضلات والتساؤلات التي أثارها؟

5 - نتائج المقاربة

من جملة النتائج التي توصلت إليها هذه المقاربة مايلي:

1- هناك إشكالية معقدة في مسألة التأريخ للدرس الأدبي، وسؤالها المحوري: كيف يؤرخ للأدب؟ خاصة وأنّه يصعب " وضع حدود فاصلة واضحة بين التاريخ وبين الأدب " [40]

2- يرفض طه حسينطريقة وآلية التعاطي مع التاريخ للأدب من زاوية المقياس السياسي، فهو ليس إلا مؤثر من المؤثرات الخارجية، يهدف إلى الاختزالية في التعامل مع الظاهرة الأدبية، كما أنه يأخذ على الأدب العربي اعتباره كوحدة مستقلة لا تنقسم إلا بانقسام العصور، حسب التسلسل السياسي.

3- كما يقف موقفا رافضا للمقياس العلمي هو الآخر، ويرى أن النزعة العلمية عقبة في جعل الأدب كيمياء أو جيولوجيا، وإن كان تخوفه مبالغ فيه إلى حد كبير خاصة بعد التطور الذي عرفه هذا التوجه على يد الشكلانية الروسية فيما بعد.

4- يختار طه حسيننزعة التوفيق بين العلم من جهة، والفن من جهة ثانية في التأريخ للآداب.

5- إن مجهود الناقد الألماني هانس روبيرت ياوسهو الآخر يعتبر أن تاريخ الأدب بمدارسه الحالية، والذي يركز على حياة الأدباء

وأعمالهم فقط، وفي شكل تتابعي وفق متواليات رياضية هو بمثابة هيكل عظمي وهذا لكونه، يقع في الاختزالية ويهتم بكبار الكتاب، أما من هم في درجات السلم فسيقصيهم، بناء على الانتقائية التي يسير وفقها.

6- إمكانية التحليل بنوعيه التاريخي والجمالي، **خاصة إن** إشكالية التأريخ للدرس الأدبي من طه حسين إلى هانس روبيرت ياوس إشكالية معقدة وبالغة التركيب، ولا يمكن أن تتوقف عند هذه النقطة، بقدر ما هي مقدمة **حاولت أن تطرح بعض الأسئلة، فالدرس الأدبي** تتضافر فيه "المقاربة التاريخية والمقاربة الجمالية" [41] حتى يؤتي ثماره على أحسن وجه، هذا من جهة، ومن جهة ثانية فإن "جمالية **التلقي لا تسمح فقط بإدراك معنى العمل الأدبي** وشكله بالكيفية التي تم فهمها على نحو تطوري عبر التاريخ، بل تقتضي أيضا، أن **يُصَنفَ كل عمل ضمن** "السلسلة الأدبية" التي ينتمي إليها، حتى يتمكن من تحديد وضعه التاريخي ودوره وأهميته في السياق العام للتجربة الأدبية، فبالانتقال من تاريخ تلقي الأعمال الأدبية إلى التأريخ الحديثي للأدب، يتضح أن هذا الأخير سيرورة يؤدي فيها التلقي السلبي **للقارئ والناقد إلى** التلقي الإيجابي للمؤلف وإلى إنتاج جديد، وبتعبير آخر، سيرورة يمكن فيها للعمل اللاحق أن يحل المعضلات، الأدبية والشكلية التي تركها معلقة العمل السابق، وأن يطرح بدوره معضلات **أخرى**". [42] هذه بعض التساؤلات التي يطرحها التأريخ للدرس الأدبي، كما أن الفصل في هذه الإشكاليات ليس بالأمر السهل، بل يبدو صعب **المنال.**

إن تأليف كتاب مدرسي، يتميز بنزعة أدبية جمالية فنية، يقتضي وجود فريق عمل، له

تخصصات متعددة ومتنوعة، ويؤمن بالكتابة الإبداعية، ويدرك معنى العمل الأدبي، وبنيته وكيفية تطوره عبر مساراته التاريخية، وكيف يقع تصنيفه ضمن السلسلة الأدبية، التي هو جزء منها، " فالتاريخ الأدبي هو ذلك الذي نشيده نحن ونبنيه بتصوراتنا الحاضرة وفقا للوسائل والمصالح والحاجات والمعلومات والأدوات والقيم التي نتوفر عليها اليوم " [43] وقبل ذلك ما هي التأثيرات التحويلية التي تمارسها النصوص فيما بينها، وما العلاقات التي يطرحها النص اللاحق بالنسبة للنص السابق، تلكم بعض الأسئلة التي حاولت هذه المقاربة أن تجيب عليها ، وإن كانت هي الأخرى تحتاج إلى فريق عمل، في تخصصات مختلفة ومتنوعة، " سيكولوجيا، سوسيولوجيا، ديداكتيك، بيداغوجيا، تاريخ، فلسفة ..." [44] وغيرها من العلوم والمعارف.

الهوامش:

1- ع. العروي، ع. كيليطو، ع. الفاسي، م.ع. الجابري: المنهجية في الأدب والعلوم الإنسانية، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، ط2، 1993، ص 5.

2- طه حسين: في الأدب الجاهلي، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط18، 1985، ص7.

3- المصدر نفسه: ص 7.

4- المصدر نفسه: ص 7.

5- المصدر نفسه: ص 7.

6- المصدر نفسه: ص 7-8.

7- المصدر نفسه: ص 10.
❖ العناوين **الخاصة** بالمقاييس هي **للناقد** طه حسينوليس **من وضعنا نحن.**
8- المصدر نفسه: ص 37.
9- المصدر نفسه: ص 37.
10- المصدر نفسه: ص 37.
11- المصدر نفسه: ص 38.
12- المصدر نفسه: ص 39.
13- المصدر نفسه: ص 40.
14- المصدر نفسه: ص 40.
15- المصدر نفسه: ص 42.
16- المصدر نفسه: ص 42.
17- المصدر نفسه: ص 45.
18- المصدر نفسه: ص 49.
19- المصدر نفسه: ص 50.
20- ع. العروي...: المنهجية في الأدب والعلوم الإنسانية، **ص** 9
21- المرجع نفسه: ص 9.
22- المرجع نفسه: ص 16.
23- **عبد القادر** بوزيدة: جمالية الاستقبال أو التلقي عند هانس روبرت ياوس. اللغة والأدب مجلة. معهد اللغة العربية وآدابها، جامعة الجزائر، ع10، **رجب** 1417هـ، ديسمبر 1996، **ص** 6.
24- المصر نفسه: ص 6.
❖❖ العنوان نفسه كما يثبه الناقد عبد القادر بوزيدة، المصدر نفسه، ص 6.
25- المصدر نفسه: ص 6.
26- المصدر نفسه: ص 7.
27- المصدر نفسه: ص 7.
28- المصدر نفسه : ص 7 .
29- المصدر نفسه : ص9 .
30- هانس روبيرت ياوس : جمالية التلقي من أجل تأويل جديد للنص الأدبي. ترجمة : رسيد بنحدو. **المجلس الأعلى للثقافة.** القاهرة. **مصر. ط**1. 2004. ص56 .
❖❖❖ العنوان السابق هو نفسه الذي يستعمله ياوس **في** كتابه جمالية التلقي. المصدر نفسه : ص19
31- المصدر نفسه : ص21
32- المصدر نفسه :ص 21
33- المصدر نفسه : ص 22
34- المصدر نفسه : ص22
35- المصدر نفسه : ص 22/23

36- المصدر نفسه : ص 23
37- المصدر نفسه : ص23
38- المصدر نفسه : ص23
39- أحمد بوحسن : العرب وتاريخ الأدب نموذج كتاب الأغاني، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، ط 1، 2003، ص 65.
40- المصدر نفسه : ص 23
41- عبد القادر بوزيدة : جمالية الاستقبال أو التلقي عند هانس روبرت ياوس .ص 9.
42- هانس روبيرت ياوس: جمالية التلقي من أجل تأويل جديد للنص الأدبي، ترجمة: رشيد بنحدو، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، مصر، ط1، 2004، ص 56.
43- أحمد بوحسن : العرب وتاريخ الأدب، ص 78 .
44- عبد الحق منصف : رهانات البيداغوجيا المعاصرة، دراسة في قضايا التعلم والثقافة المدرسية، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، ط 1، 2007، ص 6.

ترتيب المصادر والمراجع

1ـ أحمد بوحسن : العرب وتاريخ الأدب نموذج كتاب الأغاني، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، ط 1، 2003 .
2ـ طه حسين: في الأدب الجاهلي، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط18، 1985 .
3ـ عبد الحق منصف : رهانات البيداغوجيا المعاصرة، دراسة في قضايا التعلم والثقافة المدرسية، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، ط 1، 2007
4 ـ ع. العروي، ع. كيليطو، ع. الفاسي، م.ع. الجابري: المنهجية في الأدب والعلوم الإنسانية، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، ط2، 1993.
5 ـ عبد القادر بوزيدة : جمالية الاستقبال أو التلقي عند هانس روبرتياوس .اللغة والأدب مجلة. معهد اللغة العربية وآدابها. جامعة الجزائر. ع10.رجب 1417/ديسمبر1996 .
6 ـ هانس روبيرت ياوس : جمالية التلقي من أجل تأويل جديد للنص الأدبي. ترجمة : رسيد بنحدو. المجلس الأعلى للثقافة. القاهرة. مصر. ط1. 2004 .